

رائد التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة

23 يونيو 2008

أ.د. أحمد زكريا الشلق

قد لا يتذكر القراء أن المدرسة التاريخية المصرية، الأكاديمية العلمية، كان جل اهتمامها منصباً علي التاريخ السياسي، تشهد بذلك كتابات محمد صبري السوربوني وشفيق غربال ومحمد رفعت، وبل وتلاميذهم، وإن برز بينهم أحمد عزت عبدالكريم الذي قدم أطروحته عن تاريخ التعليم في مصر في عهد محمد علي وخلفائه، وحتى هذه الرسالة بالرغم من طابعها الاجتماعي إلا أنها عالجت الطابع التاريخي والمؤسسي والتنظيمي والإداري للموضوع أكثر من الاهتمام بالمجتمع المدرسة من طلاب ومعلمين، مجتمع خرجوا منه ويتخرجون إليه، ولعل هذا الأستاذ الجليل استكمل دوره ومشروعه في أبنائه وتلاميذه وكان رءوف عباس في طليعتهم، فقد وجد لديه حساً اجتماعياً رشيداً فكلفه بأن يدرس الحركة العمالية في مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر حتي قيام ثورة يوليو، وكان موضوعاً جديداً تماماً وجريئاً في حينه لم يسبق دراسته، وكان اتجاه رءوف عباس في دراسة التاريخ الاجتماعي للحركة ملفتاً وجديداً في أوائل الستينيات من القرن العشرين في مجتمع المؤرخين والمثقفين جميعاً، ووسط اتجاه طاغ علي الدراسات التاريخية وهو الاتجاه السياسي، ومن هنا كانت ريادته. صحيح أن هذا الاتجاه الجديد للنهر تعمق مجراه واتسع بدراسات جديدة له ولمجاليه وتلاميذه، لكن يبقى له فضل الريادة العلمية الأكاديمية لهذا الاتجاه فهو الذي حفر نهره في الدراسات التاريخية وفي مدرسة التاريخ المصري الحديث والمعاصر.

فكان رءوف عباس في طليعة الجيل الرابع من أجيال «أو طبقات المؤرخين» في المدرسة التاريخية العلمية المصرية في مجال التاريخ الحديث والمعاصر إذ جاز لنا أن نعتبر أن الجيل الأول هو جيل السوربوني وغربال ورفعت، وأن الجيل الثاني كان جيل أستاذه وأستاذنا عزت عبدالكريم وعبدالعزيز الشناوي وفؤاد شكري وغيرهم، ثم إن الجيل الثالث الذي كان في طليعته أحمد عبدالكريم ومصطفى ومحمد أنيس وإضرابهم.

ولكي يتعمق فارسنا في هذا الاتجاه من الكتابة «وهو التاريخ الاجتماعي» سجل أطروحته للدكتوراه عن تاريخ الملكيات الزراعية الكبيرة في مصر في القرن التاسع عشر وهي الدراسة التي صدرت عام 1973 بعنوان «النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة» عام 1973، ثم مل عليه هذا الاتجاه نفسه فوضع كتاباً آخر عن «الحركة العلمية في مصر في ضوء الوثائق البريطانية 1924 - 1937» نشر عام 1977 وحتى أواخر التسعينيات من القرن الماضي ظل اهتمامه وحده علي هذا الاتجاه الاجتماعي قائماً عندما أصدر كتابه - بالاشتراك مع عاصم الدسوقي - عام 1999 عن «كبار الملاك والفلاحين في مصر 1837 - 1902» حتي لقد استطاع أن يكون من تلاميذه مدرسة متميزة في التاريخ الاجتماعي أثرت مكتبة التاريخ المصري والعربي بدراسات جديدة وأصيلة، تخطت المفهوم الضيق للتاريخ الاجتماعي، إلي معالجة التاريخ السياسي برؤية اجتماعية، بل وأثرت في الجيل اللاحق له الذي قدم نفر منه موضوعات التاريخ السياسي برؤية اجتماعية وبمضمون اجتماعي واضح.

لقد كتب أحمد عزت عبدالكريم في تقديمه لدراسة رءوف عباس عن الحركة العمالية، موضحاً هذا التحول الجديد قائلًا إن هذه الدراسة هي ثمرة الاتجاه الجديد للتاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة بعد أن طغي الاهتمام بالتاريخ السياسي علي ما عداه وخاصة تاريخ الأمراء، والحاكمين، أو تاريخ الحركات السياسية بصفة عامة، وأن توفيقه يضيف إلي تاريخ البناء الاجتماعي لبلادنا لبنة جديدة، بل ركنا مهما يدعم الاتجاه وينير جوانبه، لقد انتقل رءوف عباس من معالجة هذه الشريحة الخطيرة والمهمة - وهي العمال وحركتهم - للدفاع عن مصالحهم الخاصة وعن مصالح الوطن عامة ضد الإمبريالية، حيث مضت هذه الحركة تحمل هذا العبء المزدوج، فدرس تكوينها ومشكلاتها وكفاحها النقابي والسياسي في عمل تاريخي اتسم بالموضوعية والتجرب فقدم عملاً لم يتجاوز به الزمن، ويعاد طبعه طبعة جديدة الآن بهيئة قصور الثقافة.

انتقل بعد ذلك رءوف عباس إلي دراسة الفلاحين وأعل الفلاحة والأرض، تدعيما لاتجاه في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي فانتقل من المدينة إلي الريف، من عمال المدن إلي ملاك الأراضي في الريف وما ارتبطت بهذه الملكية من نظام اجتماعي، فقدم دراسة علي جانب كبير من الأهمية تعد دراسة رائدة في مجالها عن الملكيات الزراعية الكبيرة في مصر التي أشرنا إليها، وقد نيهت هذه الدراسة الباحثين إلي أهمية هذا الاتجاه فتوالت دراسات زملائه وتلامذته تعالج فترات أخرى من أوضاع الملكيات والفلاحين والريف المصري.

لن أتحدث عن مؤلفاته الأخرى، فذلك موضوع يحتاج إلي دراسة أوسع، وحسبي أن أشير إلي ريادته العلمية منذ بداية اشتغاله بالبحث العلمي، وأن دراساته في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمصر الحديثة كانت وستظل فتحا جديدا وريادة مقدره في هذا المجال، وأن الدراسات التي أعقبتها لم تتجاوزها، كما أنها قدمت فتحا جديدا لمدرسة جديدة في التاريخ لمصر الحديثة، فتحية إلي هذا الرائد العملاق، والوطني العظيم المخلص، ودعواتنا له بالقوة والصمود، تحوطه محبة قلوبنا وترعاه عناية الله.

http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=23250&Itemid=39